جمهورية تشاد

(الماضي والحاضر والمستقبل)

د. موسى يوسف عيسى إدريس(*)

سأتناول الحديث عن هذا البلد المسلم في عدة نقاط، وهي كالتالي:

١ - أصل التسمية:

أصل تسمية المنطقة الواقعة في الحدود الحالية لجمهورية تشاد باسم (تشاد - TCHAD) راجعة لعدة تفسيرات - على ما ذكره المؤرخون - ومن أهمِّها ما يلي:

أ - أنَّ اسم تشاد مأخوذ من اسم لنوع من الأسماك التي توجد في بحيرة (تشاد - TCHAD)، والتي سميت باسم تلك الأسماك الشهيرة الموجودة فيها بكثرة، ومن ثم اشتق اسم البلاد من هذه البحيرة الشهيرة والتي تقع في حدودها الغربية الجنوبية[١]، وهو الأقرب إلى الصواب - والله أعلم -.

ب - قيل: إنَّها مشتقة من كلمة (شَتْ - CHET) والتي تعني «جميع أو كُل» بلغة القبائل العربية القاطنة في بعض المناطق؛ حيث كانت متداولة بينها، فيقولون: (النَّاسُ ساروا شَتْ) أي كلهم، و (البهائم كَمَلَتْ شَتْ) أي ماتت جميعها[٢].

ج - قيل: إنَّ هذا الاسم أُخذ من البحيرة التي أُطلق عليها اسم (تشاد - TCHAD). بسبب أنَّها تفيض في موسم الخريف بمياه الأمطار الغزيرة التي تنحدر إليها، أو تصب فيها من الأنهار المتصلة بها كنهر (شاري)، ونهر (لوجون)، ونهر (السلامات)، وبحيرة (فتري)؛ فيفيض ماء البحيرة ويملأ جوانبها، فيقال حينذاك: «شَتْ ماء البحيرة إذا فاض؛ فسميت المنطقة بتشاد فيما بعد»[٣].

د - قيل: إنَّ الاسم حُرِّفَ من كلمة (الشاطئ) فأصبحت (تشاد - TCHAD)؛ وذلك بسبب عدم إتقان القبائل العربية الرحل الموجودة في بعض المناطق التشادية للغة العربية الفصحى، حيث أخذوا من ضفاف هذه البحيرة منازل اصطياف لهم؛ فسموا

(*) باحث من جمهورية تشاد.

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د/أحمد شلبي، ج ٦، ص ٦٠٧ - ٦٠٨، مكتبة النهضة المصرية، ط١، ١٩٧٢م. وانظر: خارطة شكل رقم (١).

(٢) انظر: أهمية الموقع الجغرافي وعلاقته بالتطور والاستقرار السياسي في دولة تشاد، إبراهيم محمد إسحاق، ص٣٣، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود كلية الآداب، قسم الجغرافيا، عام ١٤٠٨هـ الموافق ١٩٨٨م.

(٣) انظر: العوامل الفكرية وانتشار الإسلام في تشاد (دراسة في فلسفة الحضارة الإسلامية)، د/موسى عبدالرحيم عربي، ص٣٣، رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم الفلسفة.

أماكنهم حول شاطئ البحيرة بـ (شاد) بدلاً من (الشاطئ)[1].

٢ـ الموقع والمساحة:

تشاد في الاصطلاح الجغرافي السياسي هي: المنطقة الواقعة في وسط القارة الأفريقية[2] ما بين درجتي خط العرض ٨ ْ ـ ٢٣ ْ شمالاً وبين درجتي خط الطول ١٤ ْ ـ ٢٤ ْ شرقاً من جرنتش[3] بعد رسم الحدود الحالية من قِبَل المستعمر الفرنسي، ولها حدود مع ست دول في القارة؛ فمن الشرق تحدها جمهورية السودان ـ وهي أطول حدود لها ـ، ومن الغرب كل من: جمهورية الكمرون وجمهورية النيجر وجمهورية نيجيريا الفدرالية، ومن الجنوب جمهورية أفريقيا الوسطى، ومن الشمال الجماهيرية العربية الليبية[4].

أمَّا مساحة جمهورية تشاد فتبلغ مليوناً ومئتين وأربعة وثمانين ألفاً (١٬٢٨٤٬٠٠٠كم٢)[5]؛ فهي تأتي في المرتبة الخامسة بين دول القارة من حيث المساحة: السودان، والجزائر، وجمهورية الكنغو الديمقراطية (زائير سابقاً)، وليبيا، وتشاد[6].

٣ـ أهمُّ التضاريس المناخية:

يوصف مناخ جمهورية تشاد بالحار على وجه العموم، ورياحه كلها شمالية شرقية جافة، وتحمل معها السحب حيناً والأتربة أحياناً أخرى.

وتوجد فيها ثلاثة فصول، وتتراوح حرارتها تبعاً لدرجة البعد عن خط الاستواء وهي مرتبة على النحو التالي:

أ ـ فصل الخريف:

ويمتاز هذا الفصل بتساقط الأمطار الغزيرة والعواصف الرعدية الشديدة، وتصبح الطرق غير سالكة بسبب عدم زفلتتها، وتكاد تشل حركة التنقل بين معظم المناطق.

ب ـ فصل الشتاء:

ويتسم هذا الفصل بالجفاف والبرودة، بدايته من شهر (نوفمبر) ونهايته في منتصف شهر (فبراير)،

(١) انظر: المرجع السابق نفسه، ص ٣٣.

(٢) أفريقية (AFRICA) اسم أطلقه العرب على ما يعرف الآن بتونس، وأصله من لفظ أفريقيا (AFRICA) الذي كان يقصد به الرومان كلَّ المنطقة التي آلت إليهم بعد تخريب قرطاجنة، ثمَّ شاع الاسم علَماً على إحدى القارات، ويحيط أفريقيا: البحر المتوسط، والمحيط الأطلسي، والمحيط الهندي، والبحر الأحمر، وتتصل من شمالها الشرقي بقارة آسيا من طريق شبه جزيرة سيناء. انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الكبير، جـ١، ص ٣٦١، دار الكتب، ١٩٧٠م. وانظر: خارطة شكل رقم (٢).

(٣) انظر: الجغرافيا السياسية لأفريقية، د/فيليب رفلة، ص٥٢٩، القاهرة ١٩٦٦م، ط,٢ وانظر: عبدالرحمن عمر الماحي، تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م)، ص١٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٨٢م.

(٤) انظر: خارطة جمهورية تشاد في شكل رقم (١).

(٥) انظر: العلاقات السياسية والاجتماعية بين جمهورية تشاد وجمهورية السودان في الفترة مابين: ١٩٦٠ ـ ١٩٩٠م، محمد شريف جاكو، ص٩٧، رسالة مقدمة لنيل دبلوم في العلوم السياسية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة عام:١٩٩٣م. وانظر: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م)، ص١٢، مرجع سابق.

(٦) تبلغ مساحة السودان (٢٬٥٠٦٬٠٠٠) كم٢، والجزائر (٢٬٣٨٢٬٠٠٠) كم٢، وجمهورية الكنغو الديمقراطية (زائير سابقاً) (٢٬٣٤٥٬٠٠٠) كم٢، وليبيا (١٬٧٦٠٬٠٠٠) كم٢، وتشاد (١٬٢٨٤٬٠٠٠) كم,٢ انظر: أطلس العالم، ص٩٦، مكتبة لبنان ـ ساحة رياض الصلح ـ بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٧هـ.

ويتميز بتغيرات كبيرة في الحرارة ليلاً ونهاراً حيث يصل إلى (٣٢) درجة مئوية في النهار، وتنخفض ليلاً إلى (١٠) درجات مئوية.

ج ـ فصل الصيف:

وهذا الفصل جاف حار، وتصل درجة الحرارة فيه إلى أربعين (٤٠) درجة مئوية أحياناً، ويبدأ من منتصف شهر (فبراير) إلى نهاية شهر (مايو)[١].

٤ ـ التركيبة القبلية للسكان وتعدادها:

أ ـ التركيبة السكانية القبلية:

شهدت منطقة حوض بحيرة تشاد هجرات عديدة على فترات متوالية منذ زمن بعيد[٢]، وكانت هذه الهجرات من أصول شتى وأجناس مختلفة، فمنهم الحامي[٣]، والسامي[٤]، والزنجي[٥]، وغيرها من القبائل، فتزاوجت هذه القبائل فيما بينها، واختلطت بعضها ببعض.

كما يظهر من التركيبة السكانية لجمهورية تشاد التي تضمُّ مجموعة هائلة من القبائل والأجناس المختلفة، واختلاف اللهجات وتباين العادات والتقاليد من منطقة إلى منطقة أخرى، فيقدر عدد القبائل في منطقة تشاد بحوالي مائة وخمسين (١٥٠) قبيلة، وتتحدث حوالي مائة (١٠٠) لهجة محلية[٦]، وإن كانت بعض هذه اللهجات من أصل لغة واحدة، ولكنَّها أصبحت فيما بعد لهجة لقبيلة ما ولا تفهمها القبائل الأخرى، وغالبية القبائل التشادية تتخذ اللغة العربية لغة تخاطب بينها على الرغم من أنَّ المستعمر الفرنسي فرض لغته على الشعب التشادي، وجعلها اللغة الرسمية في البلاد، وإلى يومنا هذا تعتبر اللغة الفرنسية لغة التعامل في الدوائر الحكومية والشركات والمؤسسات الوطنية وغير الوطنية، مع أنَّ الرئيس السابق (حسين هبري) جعل اللغة العربية لغة رسمية مساوية للغة الفرنسية في عام ١٩٨٥م،

(١) انظر: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م)، ص١٢ ـ ١٣، مرجع سابق. انظر: أهمية الموقع الجغرافي وعلاقته بالتطور والاستقرار السياسي في دولة تشاد، ص ٦٥ ـ ٧٠، مرجع سابق.

(٢) جاءت بعض هذه القبائل إلى المنطقة في القرن الرابع الميلادي، فمن الشمال نزح العرب والبربر يحملون معهم الدين الإسلامي وثقافته ولغته، وكما نزح إليها من الجنوب الزنوج حاملين معهم الديانة الوثنية الأفريقية، ومن الشرق نزح إليها اليمنيون والنوبيون. انظر: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص ١٩، مرجع سابق. وانظر أيضاً: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م)، ص١٣، مرجع سابق. وانظر: مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا (٦) تشاد، ص٥٥، مرجع سابق.

(٣) القبائل الحامية في تشاد كثيرة منها: حجارة وبودوما، وكوتوك، ووماسا، وغيرها. انظر: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م)، ص ٧٦، مرجع سابق. وهذه القبائل تنتمي إلى العنصر الحامي نسبة إلى حام بن نوح عليه السلام. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: محمد ثابت الفندي وزملائه، جـ ٦، ص٦٦٠، مادة «حام».

(٤) القبائل السامية ينتمون إلى ذرية سام بن نوح عليه السلام. انظر: المصدر نفسه، جـ ١١، ص ٧٥.

ومن هذه القبائل التي تنتمي إلى العنصر السامي في تشاد: (الفلاتي، والسلامات، وبني هلال، وأولاد مالك، وأولاد أبو عيسى)، وغيرها من القبائل العربية في تشاد.

(٥) القبائل الزنجية منتشرة في جنوب تشاد بكثرة، وقد احتفظت معظمها بالصفات الزنجية نتيجة عدم اختلاطها بالقبائل الأخرى. والزنج: اسم القبائل الزنجية التي تقطن في ساحل أفريقيا الشرقي. انظر: المصدر نفسه، جـ١٠، ص ٤٣٢.

(٦) انظر: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م)، ص ٧١، مرجع سابق.

كما أكدت الحكومة الجديدة برئاسة الرئيس الحالي الجنرال (إدريس ديبي) على رسمية اللغة العربية في عام ١٩٩٦م؛ حيث جاء في الدستور الجديد للبلاد في المادة التاسعة ما نصه: «إنَّ اللغتين الرسميتين هما: الفرنسية، والعربية»(١).

ب ـ التعداد السكاني:

أمَّا عدد سكان جمهورية تشاد فيبلغ حوالي ستة ملايين (٦,٠٠٠,٠٠٠) نسمة وفقاً لإحصائية عام ١٩٨٦م(٢).

وحسب آخر احصائية أجرتها إدارة مصلحة الإحصاء في وزارة التخطيط التشادية في عام١٩٩٣م بلغ عدد السكان ستة ملايين ومئتين وثمان وثمانين ألفاً ومئتين وواحد وثمانين (٦٢٨٨٢٨١) نسمة(٣). كما أنَّه حسب إحصائية عام ١٩٨٦م فإنَّ نسبة المسلمين بلغت ٨٥٪، والنصارى ٥٪، والوثنيين١٠٪(٤)، ولكن لا شك في أنَّ نسبة المسلمين أكثر من ذلك في الوقت الحالي؛ فهي قد تصل إلى٩٠٪ أو يزيد؛ وذلك لاعتناق عدد كبير من وثنيي الجنوب وبعض المسيحيين الإسلام في الآونة الأخيرة.

٥ ـ أهمُّ الموارد الاقتصادية (الصادرات التجارية):

لا شك أنَّ تنوع الموارد الاقتصادية لأي بلد يسهم في رفاهية شعبه، ويوفر لأفراد المجتمع على اختلاف طبقاته حاجياتهم الأساسية، ولقد تنوعت المصادر الاقتصادية التشادية على النحو التالي:

أ ـ الزراعة: تعتبر الزراعة المصدر الأول لدولة تشاد؛ لأنها تزرع مساحات شاسعة بأنواع مختلفة، منها: القطن والفول السوداني والقمح والدخن والنخيل والأرز والذرة والمنجو والصمغ العربي، وكمية قليلة من الموز وجوز الهند والكاكاو وغيرها، ويصدر منها للخارج (القطن والفول السوداني والتمر والدخن والقمح والصمغ) بالإضافة إلى الملح والنطرون(٥،٦).

ب ـ الرعي: نظراً لتوفر مياه الأمطار فإنَّ الرعي يشغل قدراً كبيراً من اهتمامات الناس؛ ولذا فإنَّ معظم السكان يشتغلون بالرعي وتربية الحيوانات بقصد التفاخر بكثرتها من الناحية الاجتماعية في السابق إلا أنَّها أصبحت فيما بعد مجالاً مهماً

(١) في الحقيقة أنَّ اللغة العربية أصبحت لغة رسمية منصوصاً عليها دستورياً فقط ولم تعط حقها في مجال العمل الرسمي في الدولة حتى الآن. انظر: دستور جمهورية تشاد، ص٦، المادة التاسعة.

(٢) انظر: الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، د/ عبدالرحمن عمر الماحي، ص ٧٩، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية ـ بن عكنون ـ الجزائر.

(٣) انظر: تشاد والإسلام ومعركة التحديات، آدم كردي شمس، ص٢٦، ط ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

(٤) انظر: الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، ص ٧٩، مرجع سابق.

(٥) النطرون: نوع من الأملاح فيه مادة حافظة لثمرة النخيل والكرم، وهذه الكلمة مأخوذة من نَطَر و (الناطُر والناطُرُون من كلام أهل السواد: حافظ الزرع والتمر والكرم، قال بعضهم ليست عربية محضة..) انظر: لسان العرب، لابن منظور، جـ ٦، ص ٤٤٥٩ ـ ٤٤٦٠، مادة (نَطَر)، دار المعارف القاهرة جمهورية مصر العربية، بدون سنة طبع. وانظر: القاموس المحيط، العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آباديّ، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ص٦٢٢، مادة (نَطَر)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

(٦) انظر: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م)، ص ٦٦ ـ ٦٧، مرجع سابق.

للتجارة؛ حيث تصدر إلى خارج البلاد بكميات هائلة من الثروة الحيوانية (البقر والإبل والغنم)، وخاصة إلى الكمرون ونيجيريا وليبيا وأفريقيا الوسطى.

جـ - الموارد المعدنية: تتمثل في المواد الخام والثروة المخبوءة تحت الأرض، والتي يمكن استخراجها في المستقبل مثل: اليورانيوم، والبوكسبت، والحديد، والنحاس في أقصى الشمال «بركو - أنيدي - تبستي»، وكما يوجد البترول بكميات هائلة في الجنوب وبعض المناطق الأخرى؛ حيث ظهر البترول في مدينة «ماو» عاصمة محافظة كانم، وفي مدينة «دُوبا» في محافظة لوغون الشرقية[1]؛ حيث بدأ تصدير البترول المستخرج من مدينة (دُوبَا) عبر أنابيب تمرُّ بالأراضي الكمرونية لتصل إلى المحيط الأطلسي، ومن ثمَّ إلى القارات الأخرى وذلك في عام ٢٠٠٤م[2].

٦- الحالة الدينية:

ويمكن تناول الحديث في هذه الجزئية عن وصول الإسلام إلى المنطقة، وقيام المالك الإسلامية فيها، وتاريخ وصول الديانة النصرانية إلى تشاد في العناصر التالية:

أ - تاريخ دخول الإسلام إلى المنطقة:

كانت منطقة تشاد قبل وصول الإسلام إليها تسودها الحياة الدينية الوثنية التي كانت تعرف بالإحيائية[3]، وبينما كان سكان هذه المنطقة يؤمنون بمثل هذه الأباطيل والخرافات التي لا تمت لأي دين سماوي بصلة، وهم يعيشون في ظلام حالك وجهل عظيم بعيداً عن الصراط المستقيم؛ إذ طلع عليهم فجر الإسلام، فوصلت الجيوش الإسلامية إلى المنطقة في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) حاملة معها العقيدة الإسلامية والنور المبين الذي بدأ انتشاره في المناطق المجاورة لدولة تشاد، فضلاً عن انتشاره داخل البلاد.

لقد حدد الشاطر البصيلي تاريخ وصول المسلمين إلى منطقة تشاد بقوله: (جاء عقبة بن نافع[4] بقوة من الجيش العربي، ودخل في عام ٦٦٦ ميلادية وسط الصحراء متجهاً نحو الجنوب، ووصل إلى كوَّار[5]

(١) انظر: أهمية الموقع الجغرافي وعلاقته بالتطور والاستقرار السياسي في دولة تشاد، ص٩٠، مرجع سابق.

(٢) انظر: خارطة شكل رقم (١).

(٣) الإحيائية: هي اعتقاد بقوى روحية في الأشياء، أي أنَّ للجمادات والنبات أرواحاً مشابهة لتلك التي لدى الإنسان، وأنَّ الروح هي مبدأ الفكرة والحياة العضوية في آن واحد، وكما يعتقد الإحيائيون أنَّ في هذا الكون المنظم قوة خفية تتحرك، يتعين على الإنسان تحديد مسار حركتها بطقوس دينية؛ وذلك لمنع الكوارث التي يمكن أن تصيب الإنسان في نفسه أوماله أوأبنائه... ولذلك يتجه الإحيائيون إلى عبادة الأسلاف بحيوان أ وشيء من النبات أو الجماد، وأساس فكرة عبادة الأسلاف أنَّ حياة الإنسان لا تتوقف بمفارقة الروح الجسد... وإنَّما غفوة وارتخاء من جراء ضعف يصيب القوة الحياتية السرمدية، وأنَّ روح الميت تبقى مضافة إلى مجموعة أرواح الأسلاف، ويستطيع الأحياء الاستعانة بها عن طريق الاحتفالات الموسمية. انظر: الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، ص١٠، مرجع سابق. وانظر: مجلة جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، العدد (٤)، ص٢٧٧، ٩/١٤١٣هـ - ١٩٣٣م، الجزائر.

(٤) عقبة بن نافع القرشي الفهري، وكان ذا شجاعة وحزم ودين، ولم تصح له صحبة، شهد فتح مصر، واختط بها، جهزه معاوية في عشرة آلاف ففتح أفريقية، وهو الذي أنشأ القيروان وأسكنها النَّاس، ويقال: كان الموضع (غيضة) لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى أنَّ الوحوش لتحمل أولادها، وكان مجاب الدعوة، وقتل في سنة ثلاث وستين (٦٣) من الهجرة النبوية. انظر: سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين الذهبي، تحقيق محمد نعيم العرقوس ومأمون صاغرجي، جـ ٦، ص٥٣٣، مؤسسة الرسالة.

(٥) كوَّار أو (كاوار): منطقة واقعة في جنوب مدينة فزَّان، غرب تبستي عند حدود النيجر، وقيل هي الآن داخل حدود النيجر. انظر: أمبراطورية البرن والإسلامية، ص٢١، مرجع سابق.

في تبستي الواقع شمال منطقة حوض تشاد، وعاد من هناك؛ لأنّه لم يجد خبيراً يرشده الطريق إلى الجنوب)[1]، ومعنى هذا أنّ عقبة بن نافع وصل بجيشه إلى المنطقة في القرن الأول الهجري.

إنّ الإسلام بدأ وصوله إلى منطقة تشاد منذ الفتح الإسلامي عندما وصل القائد الإسلامي عقبة بن نافع مع جيشه إلى مدينة (كوّار)، ثمّ أخذ الإسلام في الانتشار شيئاً فشيئاً في كافة الأراضي التشادية، حتى دخل ملوك (مملكة كانم) الوثنيون في الإسلام في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وصار الإسلام دين الدولة الكانمية الرسمي، فأخذ الحكام ينشرونه في أرجاء البلاد بدعوة النّاس إليه والقيام بتطبيق الشريعة الإسلامية؛ فانتشرت الثقافة الإسلامية واللغة العربية، وازدهرت الحضارة الإسلامية في هذا القرن بشكل واضح؛ ذلك بفضل الله، ثمّ بفضل الجهود المبذولة من قبل هؤلاء الملوك بعد اعتناقهم الإسلام، وتتمثل تلك الجهود في محاولتهم الجادة لتطبيق الشريعة الإسلامية، وإعطائهم مكانة خاصة للعلم والعلماء؛ فكانوا يحضرون بأنفسهم مجالس العلم[2].

وهكذا دخل الإسلام إلى منطقة تشاد، وانتشر فيها، وظل يقاوم كل دين جديد في المنطقة على مرّ العصور، واستطاع بفضل الله - تعالى - الحفاظ على الهوية الإسلامية للشعب التشادي المسلم.

ب - الممالك الإسلامية:

أمّا الممالك الإسلامية التي قامت في المنطقة هي:

١ - مملكة كانم - برنو

٢ - مملكة باقرمي ٣ - مملكة ودّاي

وكانت لهذه الممالك حدودها وسياستها وثقافتها وحضارتها الإسلامية، وعلاقتها التجارية الخارجية على مدى فترة من الزمن.

وسأتناول فيما يلي كل مملكة على حدة باختصار غير مخل - إن شاء الله تعالى -:

١ - مملكة كانم - برنو[3]:

قامت هذه المملكة في غرب البلاد بالقرب من بحيرة (تشاد) شرقاً، وتعتبر أول مملكة قامت في المنطقة، وبسطت سيطرتها ونفوذها السياسي والثقافي والاقتصادي على ما يعرف بـ (السودان الأوسط) في الفترة بين (٨٠٠ - ١٨٩٤م)، وهي أيضاً أول مملكة اعتنق ملوكها الإسلام في المنطقة، وكانت على الوثنية فترة من الزمن غير معروفة[4]، وينقسم تاريخ هذه المملكة إلى عصرين هما:

(١) تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، الشاطر بصيلي عبد الجليل، ص ٤١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.

(٢) انظر: امتداد الحضارة الإسلامية نحو بحيرة تشاد، د/ محمد صالح أيوب، ص٤٢، مخطوط.

(٣) كلمة (كانم) تدل على جنس من السودان فيقال: (بلاد كانم أو مملكة كانم)، ومدلول هذه الكلمة لم يقتصر على الإشارة إلى السكان أو القبائل المشهورة بهذه الأسماء إنّما صارت تعني كذلك المواضع أو المناطق التي تقيم بها هذه القبائل. أمّا كلمة (برنو) تعني في لغة هذه القبائل: أرض نوح. وقيل: ليست هذه التسمية سوى تحريف لكلمة (باران - BARAN أو بارام - BARAM) ومعناها الرجال أو المحاربون. انظر: إمبراطورية البرنو الإسلامية، ص ٥ - ٦، مرجع سابق. وانظر: أيضاً: الإسلام في الممالك وإمبراطوريات أفريقيا السوداء، جوان جوزيف، ترجمة مختار السويفي، ص ٨٩، دار الكتب الإسلامية، 1404 هـ - ١٩٨٤م، ط ١.

(٤) انظر: الدعوة الإسلامية في أفريقيا الواقع والمستقبل، ص ٨٠، مرجع سابق. وانظر: أيضاً: مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا (٦) تشاد، ص ٣٨، مرجع سابق.

أ ـ العصر الكانمي.

ب ـ العصر البرناوي[1].

أ ـ العصر الكانمي (٨٠٠ م ـ ١٣٠٠م):

يمتد هذا العصر من قيام هذه المملكة في عام (٨٠٠ م) إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وأول من أسس هذه المملكة الكانمية الأسرة السيفية[2]، ويعتبر حكمهم من أطول فترات الحكم المتسلسة من أسرة واحدة؛ حيث بلغ عدد ملوكهم الأوائل تسعة عشر ملكاً، وقد ظلت المملكة على الوثنية إلى أن وصلها الإسلام في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ـ كما تبين سابقاً[3] ـ فاعتنق ملوكها الإسلام، وتبنوا عملية نشره والدعوة إليه في المنطقة؛ مما أدى إلى ازدهار الثقافة الإسلامية وحضارته بشكل مُرْضٍ.

ب ـ العصر البرناوي (١٣٠٠م ـ ١٨٩٤م):

بدأ هذا العصر في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي عقب انتقال الأسرة الكانمية إلى غرب بحيرة «تشاد» بعد استيلاء قبائل (البولالا)[4] على إقليم (كانم) بعد حروب طاحنة.

وفي بداية هذا العصر واجهت المملكة صعوبات شتى ومحن جمَّة لصراعهم المستمر مع قبائل (البولالا) لاستعادة إقليم (كانم) شرق البحيرة منهم ومن القبائل المتحالفة معهم، لقد بدأ هذا الصراع من عهد أول ملك في هذا العصر (وهو الملك عمر بن إدريس) إلى نهاية عمر المملكة في عام ١٨٩٤م.

٢ ـ مملكة باقرمي[5]:

هذه المملكة تأسست في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وهي تقع في جنوب شرق من مملكة (كانم ـ برنو)[6]، ومؤسسها الأول هو السلطان (برني بيسي)؛ فقد أنشأها حوالي عام: (١٥١٣م)، وكان وثنياً وهو أول حاكم لهذه المملكة[7]، وكان حكمه مابين (١٥١٣ ـ ١٥٣٦م) وأول حاكم مسلم لهذه المملكة هو السلطان (عبد الله بن مالو) الذي حكم البلاد بين عام (١٥٦١ ـ ١٦٠٢) وقيل السلطان (بريمي)[8,9].

(١) انظر: الخارطة رقم ( ) لتحديد فترة العصر الكانمي والبرناوي، ومراحل توسع المملكة (كانم ـ برنو).

(٢) نسبة إلى سيف بن ذي يزن الحميري، سليل بيت ملوك حمير، وكان لسيف شأن عظيم في تاريخ العرب بمشاركته في طرد الأحباش من جنوبي بلاد العرب. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، جـ ١٣، ص ٣، مرجع سابق.

(٣) انظر: فقرة: تاريخ دخول الإسلام إلى المنطقة، من هذا المبحث.

(٤) البولالا: هي القبائل التي كانت تعيش في شرق بحيرة «تشاد»، ومجاورة لمملكة (كانم) وحالياً تقطن في وسط تشاد، وبالتحديد في محافظة البطحاء، ويتمركزون حول مدينة «أنجمينا بولالا» التي تَبْعُد عن العاصمة (أنجمينا) حوالي: ٣٠٠كم.

(٥) باقرمي أو باجرمي أو بقرمي أو بجرمي وهي الباقرمة، وتنطق باقرمي أو باجرمي. انظر: دائرة المعرف الإسلامية، ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد وزملائه، جـ ٦، ص ٢٢١، مادة (باجرمي).

(٦) انظر: خريطة رقم ( )، لتحديد موقع المملكة في المنطقة من بين الممالك الأخرى.

(٧) قيل أن مؤسس المملكة يدعى (دوكنج)، وكان وثنياً أيضاً وه والذي أسس مدينة (ماسانيا) وهي التي أصبحت عاصمة المملكة فيما بعد. انظر: العلاقات السياسية والاجتماعية بين جمهورية تشاد وجمهورية السودان في الفترة ما بين: (١٩٦٠م ـ ١٩٩٠م)، ص٧٢، مرجع سابق.

(٨) انظر: مواطن الشعوب الاسلامية في أفريقيا (٦) تشاد ص٤١ مرجع سابق.

(٩) العلاقات السياسية الاجتماعية بين جمهورية تشاد وجمهورية السودان في الفترة ما بين (١٩٦٠ ـ ١٩٩٠) ص٧٢ مرجع سابق.

٣ ـ مملكة ودَّاي[١]:

تقع مملكة (ودَّاي) شرق مملكة (كانم ـ برنو) وغرب (دار فور) في أقصى الشرق وعاصمتها مدينة (أبيشَّة)، ويرجع تاريخ هذه المملكة إلى عام ١٦١٥م، والتي بقيت على الوثنية فترة طويلة من الزمن، وتأخر وصول الإسلام إليها بسبب وعورة المنطقة وبُعْدُها، فاستطاعت المجموعات الوثنية الحاكمة الاعتصام فيها حتى دخلها الإسلام.

ورغم الإسهامات التي بذلتها الممالك الإسلامية في نشر الدعوة الإسلامية والحفاظ عليها، والوقوف في وجه الغزو العسكري والثقافي الفرنسي إلاَّ أنَّها لم تستطع الصمود أمامه إلى النهاية للأسباب التالية:

١ ـ قوَّة العدو الفرنسي في عدده وعتاده التي لا مجال للمقارنة بينهما.

٢ ـ ضعف الممالك الإسلامية الثلاث بسبب تفككها نتيجة للحروب والصراعات القائمة بينها.

٣ ـ استنجاد بعض الملوك بالقوات الفرنسية وإبرام اتفاقيات حماية معها[٢].

وهكذا لم تَسْلَم أيُّ مملكة من مراحل القوة والضعف في تاريخها[٣].

وبهذا يتبين للقارئ أنَّ هذه الممالك قد أسهمت بشكل فعَّال في نشر الدعوة الإسلامية في المنطقة، واستطاعت الوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي أثناء احتلاله لمنطقة تشاد، وإن كانت الصراعات الداخلية بين الممالك الإسلامية أتاحت فرصة ثمينة لفرنسا لاحتلال تشاد.

جـ ـ وصول الديانة النصرانية المحَرَّفة إلى البلاد.

تاريخ بدايات العمل التنصيري للجمعيات النصرانية في تشاد بدأ بعد تغلغل المستعمر الفرنسي في الأراضي التشادية، ونجاحه في السيطرة الكاملة على البلاد في عام١٩٢٠م، واعتبار منطقة تشاد مستعمرة من المستعمرات الفرنسية رسمياً إثر مرسوم ١٧/٣/١٩٢٠م[٤].

ففي عام ١٩٢٣م وصلت أول بعثة تنصيرية تابعة للكنيسة البروتستانتية إلى المنطقة الجنوبية، وأمَّا الكنيسة الكاثوليكية فقد بدأت تتوافد إلى تشاد في عام ١٩٢٩م[٥].

وكان بداية نشاط الكنيستين في المناطق الجنوبية والتي كانت مستهدفة من قبل الجمعيات التنصيرية الوافدة؛ لأنها مناطق وثنية بحتة خالية من الإسلام وتأثيراته، وبسبب الجهود الجبارة التي كان المنصِّرون يبذلونها في أوساط الجنوبيين بالترغيب

(١) قيل أنَّ كلمة (ودَّاي) نسبة إلى عبدالكريم بن وداعة، مؤسس المملكة، وقيل كانت تعرف بـ (دار مابا) ثمَّ أبدلت بهذا الاسم (ودَّاي). وقيل أنُّها مأخوذة من وضوء الصلاة الذي يكثر الوداويون النطق بها أثناء تعليمهم النَّاس الإسلام آنذاك. وقيل أنَّ كلمة (ودَّاي) مأخوذة من كثرة الوديان الموجودة في البلاد. ولعل الراجح نسبتها إلى (وداعة) مؤسس المملكة. انظر: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م)، ص١٨، مرجع سابق. وانظر أيضاً: تاريخ الإسلام وحياة العرب في أمبراطورية كانم ـ برنو، د/ إبراهيم صالح الحسني النوي، ص٥٤، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ١٧.

(٣) انظر: خارطة رقم: ( ) تبيِّن لك مراحل توسع مملكة في المنطقة.

(٤) انظر: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤م ـ ١٩٦٠م)، ص ١٥٤، مرجع سابق.

(٥) انظر: المرجع نفسه، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

تارة، والترهيب تارة أخرى؛ وذلك بتقديم الخدمات الإنسانية - كما يزعمون - من توزيع الغلال والحبوب، والآلات الزراعية، والأدوية، وغيرها من احتياجات الأهالي، ومنع من لم ينصع لأوامرهم وإرشاداتهم المبنية على مصالحهم الخاصة أولاً وآخراً باستغلال العوز والحاجة التي ألَمَّت بأهالي المنطقة، وقاموا بتشييد الكنائس والمدارس والمستوصفات والملاجىء النصرانية في الجنوب الوثني.

والجدير بالذكر بأنَّ رفع شعار (إنَّ عام ٢٠٠٠ ميلادي هو عام تنصير القارة الأفريقية) كان في عام ١٩٧٦م، ولكن قام البابا بتجديد هذا الشعار والتذكير به أثناء زيارته لأفريقيا.

وكما ازداد هذا النشاط التنصيري المكثف المركّز المدروس مسبقاً بخطط شتى ووسائل جمَّة وأساليب متنوعة في تشاد إبّان عهد الرئيس (إدريس ديبي) الذي طبق مبدأ الديمقراطية الغربية في البلاد، وفتح مجال تصاريح العمل للحركات التنصيرية وغيرها على مصراعيه؛ مما حدا بهذه الجمعيات إلى استغلال هذه الفرصة الذهبية أيّما استغلال، وإن كان هذا النشاط للجمعيات التنصيرية في تشاد قائماً في وقت مبكر جداً؛ وذلك منذ دخول المستعمر الفرنسي الذي قدم تسهيلات عظيمة لهذه الجمعيات، بل حمايتها من أي خطر يمكن أن يصيبها، أو يعيق عملها، أو يحدّ من نشاطها في البلاد، لكن لم تجد مثل هذه الفرصة السانحة في الوقت الحالي في تاريخها السابق في تشاد؛ حيث اتسع نشاطها كمّاً وكيفاً حتى وصل إلى أماكن لم تكن تحلم بالوصول إليها لولا هذه الفرصة المذكورة آنفاً، لقد وصلت هذه الجمعيات إلى أقصى الشمال والشرق والغرب، وجابت القرى النائية، فضلاً عن المدن الكبيرة، وهذه المناطق التي تعتبر أماكن إسلامية بحتة دخلتها بكل سهولة ويسر، بل دخلت بعض بيوت المسلمين للدعوة إلى النصرانية، وقامت مجموعات كبيرة من المنصِّرين بالانتشار في كافة مناطق البلاد مع التركيز على المناطق التي يقطنها المسلمون بغية تنصيرهم، أو التشكيك في دينهم، أو تشويهه لهم ذلك في عام ٢٠٠٠م، مع رفعهم شعار: «انتهاء دين محمد وبدء دين عيسى» - على حسب زعمهم - ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

دوافع دخول المستعمر الفرنسي إلى منطقة تشاد، والآثار التي تركها:

هناك عدة دوافع جعلت الدول الاستعمارية عموماً تتسابق إلى القارة الأفريقية في القرن التاسع عشر لبسط نفوذها على أكبر مساحة ممكنة فيها، وأشير هنا إلى أهمِّ الأمور التي دفعت فرنسا لاحتلال منطقة تشاد:

دوافع اقتصادية:

ففي القرن التاسع عشر الميلادي دخلت أوروبا في مرحلة تاريخية جديدة، وهي الاهتمام بالصناعة والتنمية الاقتصادية، فشهدت الأمم الأوروبية ثورة صناعية نمت فيها الاحتكارات الرأسمالية نمواً مطرداً عالياً في كلٍ من فرنسا وألمانيا وإنجلترا؛ ونتيجة لهذا التطور الصناعي أوجدت حوافز قوية للتسابق والتنافس نحو هذه القارة الأفريقية من أجل

الحصول على المواد الخام، وكذلك على أسواق جديدة خارج أوروبا لتصريف منتجاتها، وتوفير الأيدي العاملة بأثمان رخيصة(١).

وهذا ما فعلته فرنسا بالفعل في دولة تشاد بعد احتلالها؛ حيث فرضت على الفلاحين أن يقللوا من زراعة المحاصيل التي لا تخدم مصالحها، وفي المقابل أن يوسعوا من دائرة زراعة القطن على حساب المنتجات الأخرى التي كان السكان بأمسِّ الحاجة إليها كالدخن، والذرة، والفول، وغيرها من المنتجات الاستهلاكية، كما أنَّ فرنسا تحتكر تصدير القطن إليها، ولا يحق لتشاد أن تصدِّر إلى أي بلد آخر؛ لأنَّها هي التي أمرت بزراعته في الأراضي التشادية، وفعلاً قد تمَّت زراعة القطن لأول مرة في عام ١٩٢٨م بتوجيهات فرنسية بغية إمداد مصانع النسيج بالمواد الخام، وفرضت الإدارة الاستعمارية على الفلاحين ذلك دون مراعاة لحاجة السكان من المؤن الغذائية، مع أنَّ الفلاح التقليدي لم يستفد مادياً من زراعة القطن لقلة الأرباح، وقد يكون مديوناً أحياناً(٢).

ب - الدوافع الدينية:

لا شك أنَّ الصراع بين الإسلام والقوى المعادية للإسلام قائم منذ فجر الإسلام، وسيبقى إلى قيام الساعة، فرضى فرنسا النصرانية الصليبية عن الشعب التشادي المسلم لا يتمُّ إلاَّ بطمس معالم الثقافة الإسلامية في البلاد، وبتخلي المسلمين عن كل مظهر من المظاهر الإسلامية، واتباع دينها المنحرف وثقافتها المنحلة مصداقاً لقول الله - تعالى -: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فأول ما حطت فرنسا أقدامها في أوبانجي (جمهورية أفريقيا الوسطى حالياً)، وأنشأت مركزاً لها في «كارنو» عام ١٨٩١م(٣)، شعرت بخطورة الإسلام المنتشر في منطقة تشاد وأنَّ هذا الانتشار يهدد مصالحها في المنطقة، وبخاصة بعد تحركات (رابح بن فضل الله الزبير) في المنطقة، وانتصاره على مملكة باقرمي ومملكة كانم - برنو، وبسط نفوذه على هاتين المملكتين، وبدئه التحكيم بالشريعة الإسلامية؛ حيث جعل القضاء في إدارته يتولاه الفقهاء بتعيين من رؤساء المقاطعات، ويتمُّ الحكم بالإعدام على كل من يرتكب جريمة القتل، وتقطع يد السارق، ويجلد شارب الخمر والزاني(٤) إذا كان غير محصن؛ فجنَّ جنون فرنسا، فأخذت تمدُّ نفوذها نحو: (بحيرة تشاد) لقطع الطريق على قوات (رابح) من بسط نفوذها على كافة الأراضي التشادية من جهة ولتربط بين مستعمرتها من جهة أخرى(٥).

ومما يدل على أنَّ الاحتلال كان بدافع ديني ما قامت به فرنسا في منطقة تشاد من اصطحابها للجمعيات الكنسية، والسماح لها ببناء الكنائس

(١) انظر: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د/شوكت محمد عليان، ص٥٠٠، وما بعدها، دار الرشيد للنشر والتوزيع - الرياض ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ط ١.

(٢) انظر: أهمية موقع الجغرافي وعلاقته بالتطور والاستقرار السياسي في دولة تشاد، ص ٨٥، مرجع سابق.

(٣) انظر: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ - ١٩٦٠م)، ص ١٢٧ - ١٣٢، مرجع سابق.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص,١٢٧

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص,٣٥

والمدارس الكنسية في المنطقة، بل دعمها بالمال اللازم وحمايتها من كل المخاطر، وتذليل العقبات والصعوبات التي تقف أمامها بغية إدخال عدد كبير من أفراد هذا الشعب في الديانة النصرانية، وخاصة إدخال هؤلاء الوثنيين الذين يقطنون في جنوب البلاد، ولذا نجد جلَّ تركيزها في المنطقة الجنوبية، وفي المقابل محاربة الإسلام ولغته وثقافته بكل الوسائل المتاحة لها، وهذا ما أكده (جان كلود لتز) بقوله: (إنَّ الهدف الأساسي لفرنسا هو إزالة جميع المؤسسات التي هدفها الأساسي نشر الإسلام والثقافة العربية لكي تحل محلها مؤسسات أخرى فرنسية تتولى نشر المسيحية والثقافة الفرنسية، وخاصة في المناطق المجاورة لبحيرة تشاد معقل الإسلام)(١).

ج - دوافع استراتيجية لفرنسا:

من الممكن تقسيم هذه الدوافع إلى النقاط التالية:

١ - ظروف فرنسا الداخلية:

ففرنسا بعد هزيمتها في الحرب الألمانية الفرنسية سنة ١٨٧٠م أصبحت أوضاعها الداخلية صعبة للغاية؛ فبدأت فرنسا تفكر في تغيير مخططها العسكري، وذلك باحتلال أجزاء كبيرة من القارة الأفريقية، ومن ثمَّ تحويل أنظار الشعب الفرنسي عن الأوضاع الداخلية الرديئة، وصرف النظر عن الاهتمامات الداخلية إلى الأوضاع الاستعمارية في القارة الأفريقية؛ وبذلك تتمكن فرنسا من نقل تلك الاهتمامات الداخلية للشعب الفرنسي من القارة الأوروبية إلى القارة الأفريقية بعيداً عنها لتنسى الأمة الفرنسية مشاكلها وآلامها التي نتجت عن هزيمة فرنسا في حربها مع ألمانيا عام ١٨٧٠م.

٢ - أهمية المنطقة لفرنسا:

من الأمور التي دفعت الدول الأوروبية الاستعمارية إلى التوغل في القارة الأفريقية الدوافع الاستراتيجية؛ حيث إن الحرب القائمة بين الدول الاستعمارية ذاتها ووضعها السياسي دفعتها إلى أن تفكر في الأماكن الخالية بعيداً عن أنظار الدول الأخرى المنافسة لها، واحتلال مراكز هامة في الكرة الأرضية ومن ضمن ما اختارت القارة الأفريقية، ولمَّا كان لمنطقة تشاد ميزة خاصة في القارة؛ حيث إنَّها تقع في وسط القارة، مما دفع فرنسا إلى احتلال منطقة استراتيجية من جميع النواحي، وخاصة من الناحية العسكرية؛ فمن الناحية العسكرية وجود سلسلة جبال تبستي في الشمال التي ترتفع بعض أجزائها إلى ٣٤١٥م(٢)، وسلسلة جبال إنيدي ومرتفعات ودَّاي وملحقاتها. وبالإضافة إلى الصحراء الشاسعة التي ما زالت فرنسا تجرب فيها أسلحتها وتدرب فيها جنودها، وحتى يومنا هذا هناك قوات فرنسية مرابطة في (جمهورية تشاد) بحجة تدريب القوات المسلحة التشادية والدفاع عن دولة تشاد من التدخلات الخارجية، ولكن في حقيقة الأمر تقوم فرنسا بتدريب قواتها على كل سلاح جديد تحصل عليه، واختبار مداه وفاعليته في هذه الصحراء الشاسعة.

والتغلغل الفرنسي في دولة تشاد مر بمرحلتين هامتين، وهما:

(١) مجلة الثقافة العربية، ص٥١ - ٥٢، العدد (٧)، بتاريخ ١٢/١٤٠٠هـ - ٧/١٩٩٠م.
(٢) تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤م - ١٩٦٠م)، مرجع سابق.

المرحلة الأولى: مرحلة الاستطلاع الأوروبي للمنطقة:

هذه المرحلة تسميها الدول المُسْتَعْمِرَة «بحركة الكشوف الجغرافية»[١]، وهي في الحقيقة طلائع الاستعمار كما سمَّاها الدكتور/ محمد صالح أيوب بقوله: (فإنَّنا نطلق على هذه الشريحة الأوروبية التي قامت بهذا الدور في وسط أفريقيا اسم الاستطلاع الأوروبي، ويصدق عليهم هذا الاسم تماماً وخاصة بالمعنى العسكري بدليل أن أغلبهم كان ضابطاً كبيراً في بلاده؛ حيث نجد أسماء مثل: «العقيد كلابرتون»، و«الكابتن دونهام»، و«الضابط البحري براز»، وإن كانوا يعملون في وسط أفريقيا باسم الجمعيات الجغرافية الفرنسية أو الإنجليزية أو البلجيكية)[٢].

وهذه الطلائع قامت بمهمتها قادمة من جهات عديدة وخاصة من الشمال ومن الشرق والغرب؛ فمن الشمال نجد البعثة البريطانية، ففي سنة ١٨٢٥م عبر صحراء طرابلس كل من (كلابرتون، ودونهام، وأودني)، ووصلوا إلى بحيرة تشاد ونهر شاري، وجاءت بعده بعثة (ريتشاردستون) و(بارث) سنة ١٨٤٥م؛ فقد توزعت هذه البعثة إلى فرقتين: أحداهما بقيادة «ريتشاردستون»، واتجه شرقاً من طرابلس، والفريق الآخر بقيادة «بارث» الألماني، واتجه إلى الغرب، ووصل (ريتشاردستون) إلى بحيرة تشاد، ولكنه مات ودفن على شواطئها، وواصل (بارث) دراسة البحيرة ونهر شاري - كما يزعم - حتى التقى مع (فوجل) الذي كان يقوم هو الآخر باستطلاعاته حول منطقة وسط أفريقيا حتى وصل إلى منطقة «ودَّاي»، حيث قتل فوجل هناك عام: (١٨٥٦م) أمَّا (بارث) فقد اكتفى بما جمعه من معلومات حول بحيرة «تشاد» ومنابعها الأساسية وحياة سكانها ونظامهم السياسي وتركيبتهم الاجتماعية، ونشر هذه المعلومات كلها بعد عودته إلى بريطانيا عن طريق طرابلس، وكان لكتاباته أكبر الأثر في تعريف أوروبا بوسط أفريقيا وما يتميز به من خيرات[٣].

فقامت فرنسا بإرسال مجموعة من رجالها لغرض الاستطلاع وجمع معلومات عن المنطقة، فأول من وصل من رجال الاستطلاع الفرنسي إلى هذه المنطقة هو (بول كرامبيل) الذي وصل إلى منطقة تشاد في ٢٤/ ٤ / ١٨٩١م قادماً من وسط أفريقيا الوسطى؛ حيث كان ينوي الوصول إلى مملكة (ودَّاي)، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها؛ حيث قتل هناك مع بعض مرافقيه على يد القوات التشادية التابعة لمملكة (ودَّاي)[٤].

وعلى كل حال فإنَّ المستعمر الفرنسي استفاد من الكم الهائل من المعلومات التي حصل عليها عن المنطقة عندما تمكن رجال الاستطلاع الأوروبي من

(١) انظر: حقائق تاريخية عن العرب والإسلام في أفريقيا الشرقية، محمد أحمد مشهور الحداد، ص ٤١ - ٤٢، دار الفتح، بيروت - لبنان - ١٣٩٣هـ - ١٩٨٠م.

(٢) امتداد الحضارة الإسلامية نحو بحيرة تشاد، ص ٤١، مخطوط، مرجع سابق.

(٣) انظر: تشاد من الإستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤ - ١٩٦٠م)، ص ٣٦، مرجع سابق.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ص ١١٩.

بلوغ بحيرة تشاد، ونشروا نتائج استطلاعتهم في القارة الأفريقية، فحصلت فرنسا على معلومات كافية عن المنطقة من تصور كامل وشامل عن البحيرات والسهول والمنخفضات والهضبات والصحاري، وعن موارد البلاد الاقتصادية، وكل ذلك مهَّد الطريق أمام فرنسا لاحتلال دولة تشاد.

المرحلة الثانية: مرحلة التغلغل العسكري في المنطقة:

فمما سبق بيانه في النقاط السابقة يتضح أنَّ العوامل التي ساعدت فرنسا على احتلال دولة تشاد تتلخص فيما يلي:

١ - الحملات الاستطلاعية التي تمكنت من جمع المعلومات الدقيقة على المنطقة.

٢ - الحروب القائمة بين المالك الإسلامية لفترة طويلة.

٣ - استنجاد بعض المالك الإسلامية بالقوات الفرنسية طلباً للحماية من هجمات رابح الزبير.

على الرغم من الجهود المبعثرة في جبهات القتال المختلفة بسبب التناحر التي كانت بين الممالك الإسلامية وقوات (رابح) ظل التشاديون يقاومون التغلغل الفرنسي في البلاد، ولا يفهم من هذه العوامل أن الشعب التشادي قد استسلم استسلاماً نهائياً للمستعمر؛ حيث سجل التاريخ بأنَّه قاوم بقدر ما يستطيع إلاَّ أنَّ الكفَّة غير المتوازنة بين قوة فرنسا والشعب التشادي مكنت من نجاح المستعمر في نهاية الجولة حتى استطاع السيطرة عليها كاملة في عام ١٩٢٠م، ومن ثمَّ تحولت منطقة تشاد إلى مستعمرة من المستعمرات الفرنسية رسمياً إثر مرسوم ١٧/٣/١٩٢٠م[١].

وهكذا تناثرت أشلاء المالك الإسلامية القوية في المنطقة، وتحقق لفرنسا ما أرادت من استعمار دولة تشاد وشعبها المسلم.

أمَّا الاستقلال:

فمنذ أن حطَّ المستعمر الفرنسي أقدامه في المنطقة والقبائل التشادية المسلمة تقوم بثورات متتابعة ضدَّ المستعمر مدافعة عن أرضها وثقافتها الإسلامية وهويتها وتراثها، وبذلت في سبيل الحفاظ عليها الغالي والنفيس، فدافعت عن تلك الثروة الإسلامية بأرواحها ودمائها؛ فمذبحة «كُبْكُبْ» وحرق قرى[٢] بأكملها لأكبر شاهد على ذلك.

ويقول الباحث/ محمد شريف جاك وفي هذا الشأن: (يظهر أنَّ أول دولة رفعت علم فرنسا الحرة بعد أن احتلتها ألمانيا كانت تشاد، وذلك في ٢١/٨/١٩٤٠م، وبعدها (برازافيل) في ٢٨/٨/١٩٤٠م، وفي٣٠/٨/١٩٤٠م رفعها أوبانجي (أفريقيا الوسطى حالياً)؛ وبذلك وقفت دولة تشاد ومعها أفريقيا الاستوائية الفرنسية إلى جانب فرنسا في محنتها)[٣].

وقد تمثل وقوف تشاد بجانب فرنسا في تقديم الدعم العسكري؛ حيث أصبحت منطقة تشاد مركزاً

(١) انظر: تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال (١٨٩٤م - ١٩٦٠م)، ص ١٥٤، مرجع سابق.

(٢) وكانت هذه القرى في محافظة «كانم»، وكان السبب في حرق القرى مقتل جندي فرنسي على يد أحد القرويين، وبحثاً عن هذا الشخص تحرق كل القرية، ثمَّ ينتظر من يخرج منها ليقبض عليه، أو يقتل إن حاول الفرار.

(٣) العلاقات السياسية والاجتماعية بين جمهورية تشاد وجمهورية السودان في الفترة ما بين ١٩٦٠ - ١٩٩٢م، ص١٢٠، مرجع سابق.

هاماً للقوات الفرنسية في حربها ضد ألمانيا، فقد انطلق منها عدة حملات عسكرية اشتركت في الحرب.

ليس هذا فحسب بل قدمت دولة تشاد لفرنسا شعبها وأبناءها للقتال ضد ألمانيا بجانب فرنسا، حيث جنَّدت آلاف التشاديين لها (قدِّرت بثلاثة عشر لواء من المشاة)، وشاركوا في الحرب إلى أن تحررت فرنسا من احتلال ألمانيا في عام١٩٤٣م[١]، فعندئذ عقد الجنرال (ديجول) مؤتمراً صرح فيه بأنَّه سيكافئ سكان المستعمرات بالمساواة في الحقوق السياسية وإلغاء الاحتكارات الاقتصادية، وبهذا التصريح قد نكص الجنرال (ديجول) عن وعده وتعهده الذي وعد به الأفريقيين في أثناء محنته بأنَّه سيكافئهم بالاستقلال، وتمخض عن هذا المؤتمر نتائج نجملها في الآتي:

١ ـ تكوين اتحادات مع المستعمرات.

٢ ـ المساواة بين الفرنسيين والأفريقيين داخل الاتحاد الفرنسي.

٣ ـ تطبيق مبدأ الاقتراع العام على الأفريقيين.

٤ ـ أن تكون المجالس الأفريقية ذات سلطة حقيقية في التشريع.

٥ ـ إلغاء نظام سيطرة شركات الاحتكار ورأس المال على اقتصاد البلاد الأفريقية[٢].

وبعد المقاومة الطويلة والمريرة من قِبَل الشعب التشادي في سبيل الحفاظ على هويته وتراثه الإسلامي أظهرت فرنسا أنَّها ترغب في إعطاء الشعب التشادي استقلاله، فاختارت فرنسا عناصر وثنية للقيام بالحكم الصوري للشعب التشادي الذي يمثل وجهة النظر الفرنسية؛ وبذلك يمكن القول بأن فرنسا خدعت الشعب التشادي بهذه الصورة التي تخفي وراءها مخالب الاستعمار، حيث أعطت وعداً بالاستقلال غير أنَّ هذا الوعد نفذ بصورة عكسية ضد مصالح الشعب التشادي، وأخضعتهم للاستعمار بصورة أخرى، وكان هذا الاستقلال ـ المزعوم ـ في ١١/٨/١٩٦٠م، وبذلك أصبحت تشاد من الدول المستقلة إسمياً، وبقيت مظاهر الاستعمار فيها حتى اليوم، ولم تشعر يوماً بأنَّها استقلت فعلاً، وتخلصت من تبعيتها لفرنسا، وتظهر مظاهر الاستعمار في دولة تشاد من خلال النقاط التالية:

١ ـ قيام الحكومة الفرنسية باختيار حكومة محلية من الوثنيين.

٢ ـ احتكار الامتيازات التجارية للشركات الفرنسية وحدها دون مشاركة الشركات الوطنية.

٣ ـ حصر تصدير المنتجات التشادية ـ خاصة القطن ـ إلى فرنسا فقط.

٤ ـ فرض اللغة الفرنسية وثقافتها على الشعب التشادي.

٥ ـ التدخل في شؤون الدولة، وفرض سياساتها في جميع المجالات.

فإنَّ هذه النقاط الخمس التي أشرت إليها تظهر في حقيقة الأمر صور الاستغلال الفرنسي لدولة تشاد، ولا تظهر فيها صورة الاستقلال بأي حال.

● آثار المستعمر الفرنسي في تشاد:

ويظهر أنَّ المستعمر الفرنسي عقبة من عقبات الدعوة الإسلامية في دولة تشاد في شتى المجالات، ويتجلى ذلك من خلال آثاره بشكل واضح في الجوانب التالية:

(١) المرجع نفسه، ص ١٢٠.

(٢) انظر: تشاد من الاستعمار إلى الاستقلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م)، ص ١٩٥، مرجع سابق.

١ ـ الآثار في الجانب السياسي:

تقوم سياسات المستعمر في الدول المستعمرة على الهيمنة السياسية للشعوب المستعمرة، حيث يكون المستعمرون هم المسيطرون على مقاليد الأمور؛ مما يمكنهم من السيطرة الكاملة على البلاد، وبذلك يكونون مطلعين على جميع خبايا البلاد وخفاياها، كما يتمكنون من معرفة التركيبة الاجتماعية للشعوب؛ فيتعرفون على مواطن القيادة والزعامة فيه، وبناءً على ذلك يقومون باختيار الفئة التي يعتمدون عليها اختياراً دقيقاً؛ فيقومون بإعدادها وتنشئتها تنشئة خاصة؛ مما يجعلها ترتدي ملابس المستعمرين في ثياب وطنية، فهذه السياسة التي رسمها المستعمر أدت إلى تمكين فئة دون الأخرى في تسلُّمها مقاليد الأمور؛ فكانت هذه الفئة هي الخادم المطيع لسيده، وهي رهن الإشارة لتنفيذ مخططات فرنسا.

من جانب آخر فقد ربط المستعمر الفرنسي البلاد في فلكه، وصارت من الدول الناطقة باللغة الفرنسية، وتقوم سياسة هذا البلاد على الموالاة المطلقة لفرنسا والتبعية العمياء لها؛ مما جعل فرنسا تتدخل تدخلاً مباشراً في السياسات الداخلية للبلاد فضلاً عن تدخلها في السياسات الخارجية - فنجد أنَّ فرنسا كانت لها أيادٍ مباشرة في جميع أحداث البلاد السياسية الكبيرة والصغيرة؛ حيث إنَّها ساهمت في جميع الانقلابات العسكرية التي حدثت في البلاد، سواء بشكل مباشر أم غير مباشر، كما أنَّ فرنسا عمدت إلى غرس فتنة داخلية في تشاد؛ حيث لجأت إلى إيجاد مشكلة دائمة مع بعض الدول المجاورة مثل المشكلة الحدودية مع ليبيا فيما يعرف بأقليم «أوزو»(١)، وقد تطورت هذه المشكلة في الفترة السابقة حتى بلغت حدَّ المواجهة العسكرية بين البلدين بتحريض مباشر من فرنسا(٢) التي كانت ولا تزال تقف وراء كل الصراعات والحروب التي حدثت في البلاد؛ وذلك عن طريق تربية الأفراد الموالين لها في كل تنظيم (تنظيم الجيش - توجيه السياسة العامة).

٢ ـ الآثار في الجانب التعليمي:

إنَّ الاستعمار سعى إلى فرض الثقافة الفرنسية على البلاد، وحاول إغراء الشعب للاقتناع بالأخذ بها؛ حيث قصر الوظائف الإدارية والمراكز القيادية في البلاد على مَنْ تشرَّب بثقافته وتكلَّم بلسانه(٣)، وحتى يقابل هذا التوجه بوسيلة فعَّالة في تحقيق الهدف فقد أسس التعليم ونظامه ومناهجه على النسق الفرنسي، ووضعه على مبادئه وثقافته، وأفرغ البلاد من نظامها التعليمي السابق القائم على أساس الإسلام واللغة العربية(٤)، كما عمل على محاصرة التعليم الإسلامي المتمثل في المعاهد الأهلية الدينية؛ وذلك عن طريق تشويه صورته وصورة مدرسيه وطلابه في المجتمع.

ومع ذلك فإن معظم أبناء المسلمين لا يجدون الفرص التعليمية للأسباب الآتية:

(١) انظر: العلاقات السياسية والاجتماعية بين جمهورية تشاد وجمهورية السودان من الفترة ما بين ١٩٦٠م - ١٩٩٠م، ص ٣٣٤، مرجع سابق.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٣٣٣.

(٣) مقابلة شخصية شارك فيها كل من الصحفي/ عبدالله عيسى محمد والصحفي/ يوسف محمد زين، بتاريخ: ٨/٤/١٤١٦هـ - ٣/٩/١٩٩٥م في العاصمة «أنجمينا» في منزل إبراهيم آدم صالح، بحي قوجي.

(٤) مقابلة السابقة نفسها.

١ ـ الفقر الذي يعمُّ الغالبية.

٢ ـ عدم اهتمام الحكومة بأبناء المسلمين.

٣ ـ عدم انتشار المدارس في الأماكن التي يقطنها المسلمون.

٤ ـ حصر المنح الدراسية على النصارى والوثنيين.

٣ ـ الآثار في الجانب الاقتصادي:

كانت أهداف المستعمر الأساسية هي البحث عن الموارد الاقتصادية والمالية التي تمدُّ مصانعه التنموية التي أنشأها في عهد الثورة الصناعية التي قامت في فرنسا؛ لذلك كان طبيعياً أن يركز المستعمر في البلاد المستعمرة على مصادر تلك الموارد وعلى الموارد التي توفر له بأزهد التكاليف، فوجد المستعمرون غايتهم في الدول الأفريقية الغنية بمواردها البشرية والطبيعية المتمثلة في خصوبة التربة ووفرة المياه، فركزوا جلَّ جهدهم على استنزاف موارد تلك الدول ليمدُّوا بها مصانعهم ـ كما سبق ذكره ـ، وسياسة المستعمر الفرنسي الاقتصادية لم تكن بدعاً من المستعمرين، بل كان المستعمر الفرنسي أحد أئمتهم في وضع السياسة الاستنزافية لموارد البلاد المستعمرة، فنجد أنَّه قد ركز في نشاطه الاقتصادي في البلاد على الزراعة، بل اقتصر على زراعة ما تحتاجه مصانعه فقط دون مراعاة لحاجة البلاد التي يستعمرها، كذلك أنَّه سعى إلى ربط دولة تشاد اقتصادياً به؛ وذلك عن طريق ربط عملة البلاد بالفرنك الفرنسي؛ مما جعل الدولة دائرة في فك الاقتصاد الفرنسي في تبعية ذليلة[1]، ومن سياسات فرنسا الاقتصادية الخبيثة أنَّها مكَّنت لشركاتها فجعلتها تحتكر النشاط الاقتصادي في البلاد لا سيما في مجال التصدير؛ حيث تستغل الجو الخالي من المنافسة في تبخيس قيمة موارد البلاد واستغلالها بصورة مواد خام وشرائها بقيمة زهيدة.

٤ ـ الآثار في الجانب الاجتماعي:

لقد ترك الاستعمار الفرنسي آثاراً اجتماعية خطيرة على المجتمع التشادي؛ حيث أخذ بسياسة تذويب المجتمع التشادي، وعمل جاهداً على أن يتقمص ذلك المجتمع الشخصية الفرنسية، وأن يجعلها مثلاً أو نموذجاً يقتدى به في كل شؤونه العامة والخاصة؛ وبذلك فقد أثر المستعمر الفرنسي على عامة الشعب التشادي في جميع النواحي الأخلاقية؛ ففي الناحية الأخلاقية عمد الفرنسيون إلى كسر الوازع الأخلاقي والديني في نفوس التشاديين المسلمين، وبذلك أصبحوا يجترئون على حدود الله ـ تعالى ـ، ويهتكون أعراض إخوانهم المسلمين؛ فانتشر فيهم شرب الخمور وممارسة الرذيلة، وتناول المخدرات بجميع أنواعها، وكل ذلك نتيجة مباشرة من بث سموم الفساد التي تحطم العقيدة والأخلاق السامية في نفوس أفراد المجتمع بإنشاء بيوت الفجور والملاهي للناشئة، وترويج الأفلام الخليعة الماجنة والصور العارية والداعية للانحلال والسفور، والاختلاط بين الجنسين في جميع المجالات وخاصة في المدارس الفرنسية، وتشجيع كل ما يساعد على إفساد القيم، أو تشجيع المجتمع على إفساد أخلاقه الإسلامية الموروثة عن الآباء والأجداد، وتحطيم ثقافته وحضارته وعاداته وتقاليده الإسلامية مستغلاً الفراغ الذي أصبح سمة

(١) انظر: دوافع الاستعمار الاقتصادية، من هذا البحث.

للجيل الناشئ المسلم، يقول الشيخ/ محمود شاكر: (فقد ساهم الفرنسيون في نشر المخدرات والخمور، وشجعوا الحفلات الخلاعية ونشر الصور العارية والأفلام الموجهة، وهذا كله يدعو إلى التحرر من الدين)[1].

أمَّا المستقبل المنظور لجمهورية تشاد ـ حسب وجهة نظري القاصر ـ فستصبح لها شأن عظيم ـ إن شاء الله ـ خلال السنوات القادمة سواء كان من الناحية الدينية، أم الاقتصادية، أم السياسية؛ وذلك لما لهذه المنطقة من مميزات تجعلها حقيقة بذلك، ومن أبرز تلك المميزات ما يلي:

سبق الإسلام وتأصله في المنطقة:

لقد كان الإسلام أول دين سماوي يدخل المنطقة؛ حيث وصل إلى منطقة تشاد في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)[2]، واعتنق السكان الدين الإسلامي، وانتشر في كافة الأراضي التشادية على فترات متقاربة ما عدا الإقاليم الجنوبية التي بقيت على الوثنية حتى بدأ انتشار الإسلام فيها في الآونة الأخيرة بفضل الله ـ تعالى ـ، ثمَّ بفضل الجهود الجبَّارة التي بذلت هناك، مع أنَّ الحركات التنصيرية وصلت إلى جمهورية تشاد برفقة المستعمر منذ عام ١٩٢٣م إلاَّ أنَّها لم تنجح في إدخال الوثنيين في الديانة النصرانية إلاَّ عدداً قليلاً بالنظر إلى جهودها المبذولة المتواصلة ليلاً ونهاراً.

انتشار الثقافة الإسلامية:

قامت ثلاث ممالك إسلامية قوية في المنطقة، اعتنق ملوكها الإسلام، وتبنَّوا عملية نشر الإسلام ودعوة الناس إليه منذ وقت مبكر جداً؛ مما ساعد في انتشار الثقافة الإسلامية بشكل واسع في جميع أرجاء البلاد ما عدا الجنوب الوثني، إلاَّ أنَّ هناك تنافساً شديداً في الوقت الحاضر بين الثقافة الإسلامية المتأصلة والثقافة الفرنسية الدخيلة على البلاد المتمثلة في المحاولات العديدة للغزو الثقافي الغربي بشتى الوسائل وبجميع الأشكال، ومع ذلك كله استطاعت الثقافة الإسلامية أن تحافظ على انتشارها الواسع في كافة الأراضي التشادية حتى أصبحت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي تعتبر لغة التخاطب والتفاهم بين القبائل التشادية المختلفة الأجناس والأعراف، سواء كان في أوساط المتعلمين أم غيرهم على حد سواء.

٣ ـ التحولات الأخيرة للدعوة الإسلامية كماً وكيفاً (خاصة في الجنوب الوثني):

إنَّ نشاط الدعوة الإسلامية في جمهورية تشاد ممثلاً في جهود الجماعات الإسلامية[3]، أو الأفراد العاملين في حقل الدعوة جهود مشكورة، ومع ما تحُفُّه جملة من المخاطر والتحديات في الوقت الذي تشهد فيه الدعوة نمواً وامتداداً طيباً يتمثل في العودة الصادقة إلى الله ـ تعالى ـ ومحاولة التخلص

(١) مواطن الشعوب الإسلامية في أفريقيا (٦) تشاد، ص ٧٤، مرجع سابق.

(٢) انظر: الحديث عن تاريخ دخول الإسلام في المنطقة بالتفصيل من هذا البحث.

(٣) الجماعات الإسلامية الدعوية في تشاد تمثلت في الجماعة السلفية التي تعرف في تشاد باسم: (جماعة أنصار السنة المحمدية)، و (جماعة الدعوة أ وجماعة التبليغ)، أمَّا جماعة (الإخوان المسلمون) لا وجود لهم كتنظيم جماعي في تشاد وإن كان بعض الأفراد في كلا الجماعتين السابقتين يستحسن مبادئها وأفكارها.

من ربقة التبعية الغربية، وبث روح الاعتزاز بالدين وتبليغ الرسالة الخاتمة لمن لم يتذوقوا حلاوتها بعد.

وهذا الداعية (علي رمضان ناجل) الذي استطاع - بتوفيق الله - بنشاطه الفردي إدخال أربعة عشر (١٤) سلطاناً في الإسلام، وعلى رأس هؤلاء السلاطين (سلطان موسيقار) أعظم سلاطين الجنوب هيبة وقوة وسلطة، بل إن هذا السلطان أول من يسلم من قبيلة الغلافية التي جميعها على الوثنية والنصرانية، وبدخول هذا السلطان إلى حظيرة الإسلام انكسرت شوكة الكنيسة التي أنفقت الملايين خلال (٨٠) عاماً، وخسرت المنطقة بأسرها، بل خيبت آمال المنصرين الذين يأملون في تنصير أفراد هذه القبيلة منذ زمن بعيد على وجه الخصوص والجنوبيين جميعاً في عام ألفين.

• الحالة الاقتصادية:

فجمهورية تشاد تعتبر من الدول الفقيرة للغاية حسب التصنيف الدولي في السابق، ولكنها في الوقت الحالي في مرحلة جديدة من الحياة الاقتصادية، ومقبلة على نمو اقتصادي كبير، وربما تصبح تشاد في عام ٢٠٠٦م ثالث أهمّ منطقة اقتصادية في أفريقيا حسب الدوائر الاقتصادية الأمريكية، وأمريكا الآن تسرع في استخراج البترول التشادي، وربما في المرحلة الثانية تقوم باستخراج اليورانيوم التشادي المدفون منذ قرون دون الاستفادة منه؛ بسبب سياسات المستعمر الفرنسي لاستغلال الفقر والحاجة في أعمالهم الاستعمارية أو التنصيرية، وها هو (بابا الفاتيكان) يناشد أمريكا بعدم الإسراع في استخراج البترول التشادي، ويزعم بأنّ لديه ضمانات كافية من عدم استخراج اليورانيوم التشادي، ويسوغ ذلك بقوله: «أن تشاد منطقة هامة... وهي مقبلة على مرحلة جديدة من الحياة الاقتصادية، وربما تصبح تشاد في عام ٢٠٠٦م ثالث أهمّ منطقة اقتصادية في أفريقيا حسب الدوائر الاقتصادية الأمريكية، وإن كانت الجمهورية الفرنسية غير مشجعة هذا الاتجاه... ووسيلتنا إلى هذه المناطق الفقر والحاجة أرجو من الحكومة الأمريكية ألا تستعجل في استخراج البترول التشادي... وقد ننجز أهدافنا قبل الاستخراج، وعندئذ ثروة البلاد كلها تكون في خدمة ربنا المسيح»[1].

• الحالة السياسية:

لا شك من أن المسلمين هم أصحاب السياسة الفعلية منذ أمد بعيد؛ لأن دخول المسلمين حلبة المعترك السياسي بدأ قبل الاستقلال في عام ١٩٦٠م؛ حيث إن أول حزب سياسي ظهر على الساحة التشادية برئاسة رجل مسلم وهو عربي؛ حيث كون حزبه في عام ١٩٤٥م تحت اسم: الاتحاد الديمقراطي التشادي (u.d.t)، وفي عام ١٩٥٢م ظهر حزب آخر برئاسة مسلم وهو: أحمد غلام الله تحت اسم: الحزب الاشتراكي التشادي المستقل (p.s.i.t)، وفي يوم ١٣/٣/١٩٥٩م شكل أحمد غلام الله حكومة جديدة في البلاد فأصبح أول رئيس للوزراء رجل مسلم (وكان رئيس الوزراء بمثابة رئيس الجمهورية)، كما بدأت جبهة التحرير الوطني التشادي (فرولينا - frolinat) كحزب سياسي سري داخل البلاد منذ عام ١٩٥٨م باسم الاتحاد الوطني التشادي (u.n.t) وأعضاء هذا الحزب هم الذين قادوا الثورة الإسلامية ورفع السلاح في وجه الحكومة النصرانية الظالمة التي كانت تمارس اضطهاد

(١) انظر: التنصير في تشاد، ص ٣٣، مرجع سابق، بشيء من التصرف.

المسلمين[١] بعد حلها للأحزاب كلها واعتقال رؤسائها وتطبيق مبدأ الحزب الواحد في تشاد، وفرض قانون الطوارىء في البلاد في عام ١٩٦٢م[٢] برئاسة فرنسوا تمبلباي النصراني، ثمَّ برئاسة الجنرال (فليبس مالوم)، ودامت هذه الحكومة النصرانية العميلة لفرنسا قرابة (١٨) عاماً حتى أطيح بها في معركة مع الرئيس السابق/حسين هبري عام ١٩٧٨م، ومن ثمَّ آل الحكم إلى المسلمين، ولكنهم تنازعوا فيها فنشبت بينهم حروب دامية تحولت إلى حروب أهلية قبلية دمرت البلاد والعباد، وحتى اليوم يعاني الشعب التشادي بأسره من آثار تلك الحروب.

ومع هذا كله فإنَّ زمام الأمور في البلد بيد المسلمين، ويصعب التكهن بنزعها منهم في الوقت الحاضر والمستقبل القريب، وإن كان المستعمر الفرنسي يسعى حثيثاً في تولية رجل نصراني زمام الأمور في البلاد؛ لأن الرئيس الحالي طبق الديمقراطية نوعاً ما؛ مما أتاح الفرصة للمسلمين لممارسة السياسة من خلال تكوين أحزاب كثيرة، وقد بلغت الأحزاب التي يترأسها المسلمون قرابة (٣٧) حزباً، كلها تكونت من عام١٩٩٢م إلى عام١٩٩٧م[٣]، وهي في ازدياد يوماً بعد يوم.

• الحالة التعليمية:

مع ما سبق ذكره من الآثار التعليمية للمستعمر الفرنسي في البلاد فإننا نستطيع أن نقول: أن التعليم الإسلامي في تشاد أخذ ينمو نحو الأفضل؛ بسبب إنشاء مدارس إسلامية أهلية والخلوات القرآنية الكثيرة في كثير من المناطق التشادية، ودخل التعليم مرحلة جديدة بعد تأسيس جامعة الملك فيصل ـ يرحمه الله ـ[٤].

لقد أنشئت جامعة الملك فيصل في سنة١٤١١هـ الموافق١٩٩١م على أساس أنَّها مؤسسة تعليمية إسلامية أهلية (ذات شخصية اعتبارية) لها استقلاليتها الإدارية والمالية وأنشطتها الأكاديمية والخيرية، ومر تأسيسها بمراحل عدة حتى وصلت إلى المرحلة الحالية.

إن طبيعة عمل الجامعة تجعل أنشطتها في نطاق نشر العلم، والثقافة الإسلامية، واللغة العربية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، وهذا واضح من خلال أهداف الجامعة التي تسعى إلى تحقيقها من خلال كلياتها ومناهجها وخططها المستقبلية؛ حيث تسعى في الدرجة الأولى إلى احتواء حملة الشهادات العربية لأجل انخراطهم في الإدارات الحكومية

(١) انظر: التضامن الديمقراطي ضرورة حتمية لبناء تشاد، آدم كردي شمس، ص ٥٣، ط ١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

(٢) انظر: تشاد والإسلام ومعركة التحديات، ص ٢٧٢، مرجع سابق. وانظر: التضامن الديمقراطي ضرورة حتمية لبناء تشاد، ص٤٠ ـ ٤٤، مرجع سابق.

(٣) انظر: الديمقراطية والتعداد الحزبية في تشاد، أحمد قاسم أحمد، ص ١٢٥ ـ ١٢٩، بحث مقدم إلى قسم الدراسات العليا بجامعة الملك فصل بتشاد، كلية الشارقة للتربية، لنيل درجة دبلوم الدرسات المعمقة في التاريخ والحديث والمعاصر، بحث غير منشور.

(٤) وسبب تسميتها باسم جامعة الملك فيصل فالقصد منه هو الامتداد الطبيعي لمركز الملك فيصل الإسلامي، وفي الوقت نفسه الاعتراف بالفضل والإحسان الذي قدمه الملك فيصل ـ يرحمه الله ـ للشعب التشادي لإنشائه ذلك المركز عام ١٩٧٤م. انظر: مجلة المستقبل الإسلامي، العدد (١١٧)، محرم ١٤٢٢هـ ـ إبريل ٢٠٠١م، ص,٢٠ وانظر: المجلة العربية، العدد (٢٤١) السنة (٢١)، صفر ١٤١٨هـ ـ يونيه/يوليو ١٩٩٧م، ص,٩٧ مقابلة أجرتها المجلة مع رئيس الجامعة أ. د/عبدالرحمن عمر الماحي.

والخدمة المدنية لتفعيل دور هؤلاء المثقفين بالثقافة العربية الإسلامية لاستعادة أمجاد الآباء والأجداد في هذه المنطقة الاستراتيجية من الناحية الجغرافية والعسكرية والاقتصادية؛ حيث إنها تتعرض لحملة شرسة من قِبَل الحملات التنصيرية التي تريد لها أن تذوب شخصيتها في الثقافة الفرنسية الغربية، وتنسى ماضيها الزاهر وحاضرها الزاخر(١).

فالجامعة إذن تحملت مسؤولية كبيرة في حجمها وتبعاتها، وأخذت على عاتقها أمانة تربية الأجيال الإسلامية لا في تشاد فحسب بل في القارة الأفريقية بأسرها بفتح مجال التعليم لأبناء القارة جميعاً، بغض النظر عن التيارت السياسية، أو الحدود الاصطناعية التي وضعها المستعمرون، أو الحواجز العرقية القبلية المقيتة والتي حاربها الإسلام منذ أربعة عشر (١٤) قرناً من الزمن.

فهذه خلاصة أبرز آثار هذه الجامعة المباركة:

١ ـ تأسيس الكليات التالية: اللغة العربية، وكلية الشارقة للتربية، وافتتاحها مركز المدينة المنورة للتدريب، وإنشائها قسم الدراسات العليا لمرحلتي الماجستير والدكتوراه.

٢ ـ استيعاب جملة من الطلبة من حملة الشهادات العربية من التشاديين، وغيرهم من الدول الأفريقية.

٣ ـ تخريج دفعات ممن تمَّ تأهيلهم لسد الفراغ الإداري والتعليمي.

٤ ـ نشر اللغة العربية والثقافة والحضارة الإسلامية في تشاد والدول الأفريقية المجاورة، وإعدادها جيلاً مستنيراً بالعقيدة الصحيحة والعلم النافع.

٥ ـ إحداث التوازن بين اللغة العربية واللغة الفرنسية في المجالين الإداري والتعليمي، وفي المؤسسات الحكومية المختلفة.

٦ ـ افتتاحها مستوصف التضامن الإسلامي، ومركز الخدمات الجامعية ليقدم خدماته الطبية لأساتذة الجامعة وموظفيها وطلابها وذويهم.

بالإضافة إلى افتتاحها في بداية عام ١٩٩٩م المكتبة المركزية للجامعة التي تبلغ مساحتها ثمانمائة وأربعين (٨٤٠) متراً مربعاً، وتعد الآن أكبر مكتبة علمية إسلامية في البلاد، وتحوي عشرين ألف (٢٠٠٠٠) كتاب ومرجع في مختلف التخصصات(٢).

هذه لمحة بسيطة عن جمهورية تشاد من نواحٍ مختلفة في الماضي والحاضر والمستقبل.

ونسأل الله أن ينفع بها المسلمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: المطوية التعريفية للجامعة التي أعدت من قبل إدارتها في عام ٢٠٠١م، ص ١ ـ ٣. وانظر: المجلة العربية، العدد (٢٤١) السنة (٢١)، صفر ١٤١٨هـ ـ يونيه/يوليو ١٩٩٧م، ص٩٧ ـ ,٩٨ وانظر: مجلة المستقبل الإسلامي، العدد (١١٧)، محرم ١٤٢٢هـ ـ إبريل ٢٠٠١م، ص ٢٠ ـ ٢١. بالإضافة إلى حديث الدكتور عن الجامعة في لقائه مع الجالية التشادية في مدينةالرياض، في عام ٢٠٠٣م

(٢) انظر: مجلة المستقبل الإسلامي، العدد (١١٧)، محرم ١٤٢٢هـ ـ إبريل ٢٠٠١م، ص٢٠ ـ ٢١. وانظر: المجلة العربية، العدد (٢٤١) السنة (٢١)، صفر ١٤١٨هـ ـ يونيه/ يوليو ١٩٩٧م، ص ٩٧، مرجع سابق.